طاغية القرية

مأساة ذات فصلين

بقلم يوسف غصوب

أسماء الأشخاص

شهيد فتى لبناني في الثلاثين من عمره. هاجر الى البلاد الاجنبية (المكسيك) ثم عاد بعد غياب خمس عشرة سنة. حليق الشاربين. على وجهه كآبة وفي قسمه شمم.

خليل الهاشم (ابو شهيد) رجل في الستين من عمره، متوسط القامة، غليظ الرأس، له شاربان ايمان، وحاجبان كثيفان يشرفان على عينيه. وجهه متماسك، بارز الذقن. يلبس الطربوش المغربي عليه كوفية سوداء، ويرتدي سراويل وجداناً كاللبنانيين منذ ثلاثين سنة. حركاته سريعة، وفي نطقه نبرة وغلظة.

مريم زوجة خليل. في الخمسين من عمرها، وجه رائق كئيب، وثياب سوداء بسيطة.

ليلى ابنة خليل. في الثانية والعشرين من عمرها، جميلة، شاحبة الوجه، عينان سوداوان، ومنطق عذب. ثياب بسيطة.

فارس فلاح لبناني.

شحاذ

مكاريون

المسرح

دار لبنانية في احدى قرى الجبل. في صدر البيت، الى الجهة اليمنى منه، قنطرة تطلّ على الطريق وعلى القرية. يرى منها مناظر لبنانية كجبل مثلاً واشجار صنوبر. وفي الجهة اليسرى باب ينفتح على غرفة يُصعد اليها بدرجتين. ثم في الجانب الايمن باب يؤدّي الى الخارج، وباب غرفة يقابلها في الجانب الايسر. بابا غرفتين. في صحن الدار طاولة عليها قنديل وسكين، وعلى الارض سفط فيه ثياب. وعلى الجدار الايسر صورة للعذراء امامها، على رفّ، كباية زيت مضاءة.

تاريخ وقوع الحادثة حوالي سنة ١٩٠٠، في قرية من قرى لبنان.

(حقوق التمثيل محفوظة للمؤلف)

الفصل الاول

المشهد الاول

مريم . ليلى

يُرفع الستار رويداً رويداً فتبدو مريم جالسةً الى الطاولة ، وهي ترقع ثياباً على ضوء القنديل ويُرى الى جانب النطرة التي تطلّ على الطريق ليلى واقفة تنظر الى المخارج حيث ضوء القمر ينير القرية ، وتصيخ الى صوت « القصب » الذي سُمع قبل رفع الستار من بعيد ، ثم تقارب ، ثم تباعد حتى تلاشى .

عندما ينقطع صوت القصب ، تنادي مريم ابنتها فترتعش كأنها افاقت من نوم .

مريم (تنادي ابنتها وهي ترقع) ليلى . . . (كأنّ ليلى لم تسمع . ترفع مريم رأسها وتنادي بصوت اعلى) يا ليلى . . .

ليلى أُمي !

مريم قرّبي لي هذا السفط . . . ارفعي ضوء القنديل قليلاً (تنظر اليها فتراها حزينة) ماذا يا ولدي ! ؟ ما بكِ ! وجهكِ شاحب . . . وكأنّ الدمع في عينيك !

ليلى لا شيء .

مريم انظري اليّ . . . ما بك ؟ قولي .

ليلى لا شيء .

مريم متى كنتِ تكتمينني اسرارك ؟ قولي ، هل تشعرين بألم ؟ مجّي لك تكلّمي . تكلّمي ، قولي .

ليلى هواجس صبيانية يا أُمي . ليس ما يدعو الى القلق .

مريم ما هي هذه الهواجس !

ليلى لا شيء . . . خففي روعك ، يا امي ، لا تشغلي بالك .

مريم الستُ انا امك يا بنيتي ، يا ولدي ، الست موضع سرك ؟ خبريني .

ليلى كنتُ عند المساء واقفة على سطح البيت ، امام البحر ، انظر الى بيروت . وكانت الشمس قد قاربت الغروب ، واذا بباخرة قد ظهرت

في الافق الاحمر البعيد كأنها نقطة سوداء . واخذت تدنو قليلاً فقليلاً ، ودخانها يرتفع في الفضاء ويرسم على صفحة السماء اشكالاً والواناً . وبينما انا اتأملها اذا بغراب كأنه انفصل من ذلك الدخان قد علا في الجوّ ، واقبل يرفّ بجناحيه السوداوين حتى اذا صار فوق رأسي انقضّ منحدراً وكاد ان يلمس حَورة البستان . ونعق نعقات متوالية ، ثم عاد من حيث اتى .

مريم خرافات ، يا ولدي . هذه اوهام . اتعتقدين بمثل هذه الخرافات ؟

ليلى وظلت الباخرة تشقّ عباب البحر حتى دخلت المرفأ ، وعيناي لا تتحولان عنها . . وقلبي منقبض كأن يداً حديدية تضغط عليه ، وهو لا يزال . . .

مريم (تحاول ان تبتسم) حقاً ، يا ليلى ، ان افكارك لا تزال صبيانية . دعي هذه الهواجس ، واجلسي قبالتي .

ليلى (الدمعة في عينيها) .

مريم يا ليلى ، ما هذا البكاء ؟ انسيت انك منهوكة القوى ، وان الحمى لم تفارقك الا من زمن قريب ! فأدنى تأثير يُضرّ بصحتك .

ليلى (متابعة خيالها) ثم تصوّرت فتى امامي . . . خمس عشرة سنة . . . عينان زرقاوان . . . شعر الشقر متطاير في الهواء ، وجه ضحوك . . . ذقن بارز . يأخذني بين يديه . وانا اذ ذاك كاللعبة فيرفعني فوق رأسه ويقبلني . . . أخي ، هو أخي ابن هو ؟

مريم الافضل ، يا ولدي ، ان تذهبي الى فراشك .

ليلى حدثيني عنه ، قولي لي ابن هو ؟ . . . هاجر منذ زمان طويل . هاجر كما هاجر غيره . ولكنّ المهاجرين يكثرون لاهلهم . ولكن الكثيرين منهم يعودون من الوطن . اما هو فلا يكتب . اما هو فلا يذكر . لِمَ هاجر اخي ؟ نحن ، والحمد لله ، في بحبوحة من العيش تكاد القرية ان تكون لنا بجملتها .

مريم اسكتي ، يا ليلى . . . اذهبي لفراشك .

ليلى كلما رأيت الصبايا يتزهنّ مع اخواتهنّ يضيق صدري ويتسارع الدمع الى عيني

مريم كفى يا ليلى ... انك تنكئين جرحاً اليماً وتجددين ذكرى مرّة . ان في صدري اشياء تكاد ان تخنقني، وانا اكتمها عنك، فلا تحرجيني الى النطق بها.

ليلى اشركيني في آلامك يا اماه.

مريم ماذا اقول يا بنيتي . انك في وهم وضلال . هذه القرية التي تدعين انها لنا هي خلاصة مظالم لا تحصى ... انك لتجدين على كل خشبة من خشب اكواخها، وعلى كل حجر من حجارة بيوتها لفظة «الظلم» مكتوبة بدم الفقراء ... لم نكن من قبل ما نحن الآن ، كما تتوهمين ... كأن لنا هذا البيت وما حوله ... ثم اخذت تتقد املاكنا كما تقدّ السنة النار في زرع يابس.

ليلى ومن اشعل هذه النار ؟

مريم من اشعل هذه النار ؟ اشعلها ابوك . ابوك ذو القلب الحجري ، ابوك الطماع القاسي . الرجل الخائل ، الرجل الذي لا تمسّ يده شيئاً الا كسره . آه ! نحن شقيتان يا ولدي ... نحن عبدتان ضعيفتان حقيرتان في هذا البيت المظلم . نحن لا نرد ضيماً ولا ندفع أذى (تكاد تبكي)

ليلى ساعديني ، يا امي . فقد اثرت شجونك ، واسلت دموعك.

مريم ابوك من عبدة المال . انه يدوس على قلوب الارامل ، ووجوه الفقراء. ليصل الى فلس مطروح بعيداً عنه ... لا يعيش الا للمال ، لا يحلم الا بالمال ، لا يرى الا المال ... هل رأيته يوماً يبتسم ابتسامة صادقة ؟ هل هشّ لك يوماً ؟ هل حضنك يوماً ؟ هل ضمك الى صدره ؟ مَن انا ؟ مَن انتِ ؟ نحن امتعة ملقاة في البيت لا تفيد شيئاً . الثور الذي يحرث الحقل ، والشجرة التي تثمر ، هما افضل منا ... تسأليني لماذا هاجر شهيد اخوك ! ...

ليلى كفى ، يا امي ، كفى . شفقك ، كفى !

مريم شهيد اخوك روح طاهرة.

ليلى أمي!!

مريم لما ترعرع وغا واخذ يستأنس بالحياة، وانفتح قلبه للشباب، التفت حوله فما وجد الا وجوهاً مغلقة، ونظرات ملؤها الضغينة والحقد. فكان اذا اقترب من فتى ليمدّ اليه يده سلّ ذلك الفتى اصابعه ومشى. وكان اذا ولج على جماعة من الشبّان يغنون ويرقصون انقطعوا عن لهوهم وحوّلوا عنه لحاظهم، وربما تفرقوا عنه وتركوه وحيداً. فكان شهيد يتألم. وكان يرجع الى البيت حزيناً. وكم من مرة رأيته منفرداً في غرفته وهو يبكي ... ولكنه تجلّد، وفتح قلبه للفقراء، وتواضع لهم وتقرب منهم بكل وداعة وعطف حتى كسر شيئاً من حدة بغضهم. فاخذ بعضهم يميل اليه. ولكنّ اباه كان ينظر الى هذا التصرّف نظر الغيظ والحنق، وقد سمعته مراراً يشدّد عليه في تجنّب هذه الشفقة وهذا العطف ويقول له: «يا لك من شقي؟ كاني بك تنفق في يوم واحد ما جمعته في السنين الطوال!»

ليلى بحقي عليك يا اماه، الا كففتِ عن هذه الذكريات الدامية!

مريم وما زال الوالد والابن في نفور وتناقض حتى طفح الكيل وانفجر المرجل ... كنتِ، يا ولدي، صغيرة جداً، فلا تذكرين شيئاً من هذا ... في هذه الغرفة، وامام هذه الصورة، صورة العذراء، تصادم ابوك وشهيد، امام نفر من الدرك وامرأة ارملة مسكينة. ومن هذه الغرفة ذهب شهيد ولم يرجع ...

كان لابيك دين على هذه المرأة، فاخذ به حكماً عليها وامرأ ببيع كل ما تملك لاستيفائه. ولم يكن لها الّا بيت حقير وقطعة ارض امامه. فجاءت تترجى وتبكي، واستصحبت طفلها معها، وجثت على قدمي ابيك واستعطفت حتى رقّ لها الجندي. اما ابوك فكان كالصخرة الصماء.

فلما رأى ذلك شهيد لم يملك عبراته، فاخذ يحنّن قلب ابيه بالفاظ

كلها عطف وحنوّ ، وارتمى على يده يقبلهـا ، فلم ينل منه شيئاً . فاستشاط اذ ذاك شهيد غضباً ، ورفع صوته قائلاً : « ان لم تعطف على هذه المسكينة فانا ذاهب ولن ارجع . » فصفعه ابوك صفعـةً لا يزال دويّها يرنّ في أذنيّ ، وصاح به : « اذهب الى حيث شئت فـلا خير فيك » . . . وهاجر شهيد . ولم يعد . ولم يكتب . ولا نعرف اين هو .

ليلى (تبكي)

مريم اما الأرملة فأت طفلها ، وفقدت عقلهـا . وكانت كلما وقفت على الابواب تقـوّل تدعو على ابيك ، وتدعو علينا جميعاً .

ليلى رُحماك ، اللهم ! رحماكِ ، ايتها العذراء !

مريم وانني منذ ذلك الحين انتظر المصيبة كل يوم . وكلما فتحتُ الباب اتصوّر انها وراءه .

ليلى صبرًا ، يا امي ، تعالي نصلّي لعلّ الله يردّ عنـا غضبه . لنحسن الى الفقراء ، لنصنع الجميل . لعلّ الاحسان يردّ المصيبة !

مريم ولكن الفقراء لا يأكلون خبزنا ، يا ولدي ، يخافون شرّ خبزنا . ولا يستعطي على بابنا الا الغربا . فهم لا علم لهم باللعنة المسكوبة علينا .

(تقف المرأتان امام ايقونة العذراء تصليان . عندئذٍ يسمع من بعيد نشيد (١ متـوّل يقترب قليلاً فقليلاً ، حتى اذا وصل امام البيت وقف عن الانشاد . تدخل ليلى الغرفة وتأتي برغيفين)

الفقير (من الخارج) أعطوني الله يعطيكم !

ليلى هذا فقير جاء البارحة ، وقد اوصيته ان يرجع .

(تجلس مريم الى الطاولة بينما ليلى تعطي الفقير . وفي هـذه الأونة يبدو ابو شهيد في الباب ويرى ابنته على هذه الحالة ، فيحدق نظره اليها غاضباً ، وهي تقول للفقير :)

صلِّ لاجلنا ، يا اخي .

---

١) يمكن ان ينشد الفقير هذين البيتين :

ناءٍ عن الاهل ، مسكين اضرّ به طول البعاد ودهرٌ ظالم قاسِ
هل راحم يرتجي اجرًا فيرحمه ! لا يذهب العرف بين الله والناس !

(لها صلة)